الإصلاحات الإدارية والمالية التي قام بها الخليفة عمر بن عبدالعزيز في الدولة الإسلامية

(99 -101ه / 717 – 719 م)

د. أبوبكر بشير سالم

كلية التربية الزنتان، جامعة الزنتان

المستخلص:

كان من ضمن الخلفاء الأمويين، الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي حفظ القرآن في سن مبكرة، وتفقه في الحديث ودرس الأدب ونظم الشعر، ونتيجة تبحره في العلم قيل عنه: (كانت العلماء مع عمر بن عبدالعزيز تلامذة) وبتلك الصفات حُقّ له أن يكون خامس الخلفاء الراشدين.

تقلد الخلافة بين الأعوام (99 – 101 ه / 717 – 719 م) والتي تميزت بالعدل والنزاهة والاستقامة، ورد المظالم، مما جعل أفواج عديدة تدخل الإسلام في عهده، الذي كان الذرة في الخلافة الأموية برمتها، حيث سار على هدى جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد قام بإصلاح الخلافة ودواوينها ونظمها المالية، كما أرجع للخلافة هيبتها، وساد الأمن والأمان في عهده.

نستنتج من هذه الورقة: أن تنظيم الدولة الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز، قد بلغ دروة العدل والمساواة بين المسلمين السابقين وحديثي العهد في الحقوق والواجبات، وسيادة الأمان والاستقرار.

الكلمات المفتاحية: الإصلاحات الإدارية والمالية، عمر بن عبد العزيز، الدولة الإسلامية.

المقدمة:

من المفيد القول بأن تاريخنا الإسلامي، قد خلّدا لنا مواقف بطولية بقيت دخراً ومصدر تفاخر لكل مسلم ، كما ترك لنا سير رجالات عظام لا و لن يطويها الزمان ،تميزوا بصفات الكمال من النزاهة والاستقامة والتفوق والخبرة والشجاعة والإقدام، وكان لهم التأثير في كافة الجوانب الحياتية (السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية)، ومن بين أولئك الرجالات العظام الخليفة الأموي العادل (عمر بن عبدالعزيز)، الذي يعد من اشهر خلفاء بني أمية الذين اتصفوا بحسن السيرة ونقاء السريرة والسعي إلى نشر الإسلام سريرة وإعلاء كلمة الدين، وقد أصبح حكمه غرة في جبين ذلك العصر، حتى شبه المسلمون خلافته بخلافة جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه (حسن، 2001: 265) أجمعت الآراء على عدله وعدالته واستقامة سيرته، وصلاحه وحرصه على مصالح الرعية طيلة خلافته التي لم تعمر لأكثر من الثلاثة أعوام ، فكان بحق خامس الخلفاء الراشدين كما سماه المؤرخين.(محمصاني، 1984: 35)

داع صيته بين الرعية والأمم، وتمتع بأخلاق جده عمر بن الخطاب الأخلاق الإسلامية الفاضلة، ومن وصايا الإمام على رضي الله عنه في طلب التوبة والعفو والمغفرة ومخافة الله:

قريحُ القَلْبِ مِنْ وَجَعِ الذُّنوب *** نَحيْلُ الجِسْمِ يَشْهَقُ بالنَّحِيبِ

أضَرَّ بجسْمِهِ سَهَرٌ اللَّيَالِي *** فَصَارَ الجسْمُ منْهُ كَالقَضيبِ

وَغَيَّر لوْنَهُ خَوْفٌ شَدِيدٌ *** لِمَا يَلْقَاهُ مِنْ طُولِ الكُرُوبِ

يُنَادي بالتَّضَرُّعِ يا إلاهي ***أَقِلْني عَثْرتي واسْتُر عُيُوبي

فَزعْتُ إلى الخَلائقِ مُسْتَغيثاً*** فَلَمْ أرَ في الخَلائِقِ مِنْ مُجَيبِ (الهلاوي، 2014: 39)

وميّزته بالسياسة العادلة والحكم الرشيد، وقام بإصلاح إدارة الخلافة ودواوينها ونظمها المالية، وأعاد هيبة الخلافة عن طريق نشر العدل والمساواة والأمن والأمان، بعد ما ساد الخلافة من بُعد عن نهج ومنهج الخلفاء الراشدين، فاستقرّت (الخلافة)

في عهده، وأصبح (يرعى الذئب مع الغنم) كما قال حسن القصاب وكما قال موسى بن أعين تعبيرا عن العدالة والأمن. (السيوطي، 1977: 278-279)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: مِنْ ولدي رجل بوجهه شَجَّةٌ: "وهي ضربة دابة في جبهته وهو غلام" (حسن، 2001: 266) يملأ الأرض عدلاً، أخرجه الترمذي في تاريخه (السيوطي، 1977: 273). وامتثالاً لقوله تعالى:(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (سورة الشعراء، الآية 214)، وقوله تعالى :(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون). (سورة النحل، الآية 90)

أولاً: مشكلة الدراسة:

على دارسي التاريخ الإسلامي ومؤرخيه التركيز على المبادئ النيرة والسلوكيات الرشيدة التي جاء بها هذا الدين، للمنافسة بها بين الأديان السماوية الأخرى، ومنها مبدأ العدل والعدالة والنزاهة ونظافة القلب قبل اليد، وحسن الخلق، ومخافة الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الصفات توفرت في الخليفة عمر بن عبد العزيز، الشيء الذي جعلني أكتب في هذا الموضوع وعلى هذه الشخصية الإسلامية التي تركت بصمات من نور في مسيرة هذه الأمة.

ثانياً: فروض الدراسة:

- كيف وصل عمر بن عبدالعزيز إلى سدة الخلافة؟
- هل واجهت هذا الخليفة عند تطبيق مبدأ العدالة عراقيل؟
- ماهي أهم الإصلاحات الإدارية والمالية التي قام بها عمر.
- ما نتائج تلك السياسة على مستوى الدولة الإسلامية؟

ثالثاً: أهداف الدراسة:

1- التعريف بالدولة الإسلامية واتساعها.
2- تقديم التاريخ الإسلامي للأجيال القادمة على أنه مفخرة لكل مسلم.
3- إبراز أشد خليفة في الدولة الأموية في تطبيق العدل والمساواة بين جميع المسلمين.
4- الدراسة بتمعّن في الإصلاحات الإدارية والمالية التي أدخلها عمر بن عبدالعزيز على الدولة الإسلامية وجدواه الاقتصادي والديني والاجتماعي.

رابعاً: أهمية الدراسة:

استخلاص النتائج والعبر والدروس من خلال دراسة تاريخنا الإسلامي، وتوجيه الأجيال إلى التأثر بهذه الشخصيات الإسلامية والتعمق في هذه الدراسات التاريخية، ولكي لا يصبح ماضينا الثقافي والسياسي والاجتماعي والديني طي النسيان.

خامساً: منهج الدراسة:

حاولت في هذا البحث إتباع المنهج التاريخي القائم على الربط المنطقي بين الأسباب والنتائج.

سادساً: تقسيمات الدراسة: تم تقسيم هذا البحث إلى ثلاث مباحث وهي:

- المبحث الأول: عمر بن عبد العزيز منذ الولادة حتى الخلافة.
- المبحث الثاني: إصلاحات عمر الإدارية.
- المبحث الثالث: إصلاحات عمر المالية.
- ثم الخاتمة.

المبحث الأول:

عمر بن عبد العزيز منذ الولادة حتى الخلافة:

هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولي الخلافة الأموية بعد استخلاف سليمان بن عبد الملك له، مولده في مدينة حلوان بصعيد مصر التي اتخذها أباه عبد العزيز دار الإمارة ونقل إليها الدواوين وطال بقائه بمصر إلى ما يربو العشرين عاما (65ه /684م – 86ه /705م)، وكان مولد عمر في العام (63ه / 682م) وكانت نشأته وترعرعه وتعليمه وتثقيفه فيها على يد شيوخها من محدثين وفقهاء حتى برع في الحديث وتعمق في الفقه فصار عالماً متديناً عادلاً.(ابن سعد، 1322: 243 / الزبيدي، 2002: 107)

تمكن عمر بن عبدالعزيز من حفظ القرآن في سن مبكرة، ثم أرسله أبوه إلى المدينة لطلب العلم برفقة أمه، فتفقه في الدين ورواية الحديث كما عكف على دراسة الأدب ونظم الشعر، ونتيجة تبحره في العلم قيل عنه :(كانت العلماء مع عمر بن عبدالعزيز تلامذة). (حسن، 2001: 265)

مكث ما شاء الله أن يمكث بها (المدينة)، فأرسل أبوه عبدالعزيز بن مروان إلى زوجته القدوم عليه ومعها ابنها، إلاّ أنها استشارت عمها عبدالله بن عمر في ذلك الأمر، فأشار عليها بالذهاب وحدها وترك عمر في المدينة ليتعلم العلم ويتأدب بآدابه. (عبدالواحد، 1966: 15)

ومما قيل في عمر بن عبدالعزيز قبل توليه الخلافة ما ورد عند كثير من المؤرخين منهم:

قال محمد بن فضالة: مرّ عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز براهب في الجزيرة؛ فنزل إليه الراهب ولم ينزل لأحد قبله، وقال: أتدري لما نزلت إليك؟ قال: لا، قال: لحق أبيك، إنا نجده في أئمة العدل بموضع رجب من الأشهر الْحُرُم، ففسره أيوب بن سويد بثلاثة متوالية: ذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، أبي بكر، وعمر، وعثمان، ورجب منفرد منها عمر بن عبدالعزيز. (السيوطي، 1977: 278)

- رؤيا جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

تذكر الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رؤيا فقام من نومه وهو يقول: من هذا الذي يكون أشج من ولدي، ويسير بسيرتي؟ ويقول: من ولدي بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً. وقد كان عجبه كبير لهذه الرؤيا، فكيف تتحقق تلك الرؤيا وقد حرم أولاده جميعاً من الخلافة، ومع كل ذلك صدّق أهله تلك الرؤيا بعد أن قصها عليهم، وعلقت بأدهانهم جميعاً وانتظروا تأويلها، وكان عبدالله بن عمر بن الخطاب يردد ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً. (عبدالواحد، 1966: 15)

- وصول عمر إلى منصب الخلافة:

من المعروف تاريخياً أن عبدالملك بن مروان يعتبر المؤسس الثاني للخلافة الأموية لما أدخله عليها من نظم وسياسات ومنها أنه أول من نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية، (السيوطي، 1997: 261) كذلك يعتبر عند المؤرخين في مصادرهم بأبي الخلفاء من بني أمية، بحكم عدد من تولى الخلافة الأموية من صلبه وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام وكلهم أبناءه ، ولم يكن حكمهم بالتوالي لكن على فترتين، جاءت بينهم فترة متميزة في تاريخ الخلافة الأموية وتاريخ الإسلام عامةً.(زكار، 1982: 198) أوصى عبدالملك بالخلافة قبل وفاته لأبنه الوليد، ثم سليمان، وكان حكم الوليد في الفترة من(86ه /705 م إلى 96ه /715م)، فخلفه

سليمان، الذي لم تطل مدة خلافته من (86ه /705م إلى 99ه /717م) ، وعند اقتراب المنية وهو بدابق بأرض الشام دخل عليه رجاء بن حيوة ،وكان مشهوداً له بأنه أعبد أهل زمانه، وكان موصوفاً بالحكمة والشدة بين أهل الأردن، وكانت ملوك بني أمية تثق به لفضله وشرف نفسه ، فلما دخل عليه ، قال ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح، فقال سليمان: كيف ترى داوداً أبني؟ وهو غلام لم يبلغ، فقال رجاء: يا أمير المؤمنين، داود غائب عنك بالقسطنطينية وأنت لا تدري أحي هو أم لا؟ فقال سليمان: فكيف ترى عمر بن عبدالعزيز؟ قال: أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً. (زكار، 1982: 199-200)

من المعلوم أن عبدالملك بن مروان ولاه الحجاز وكذلك فعل الوليد، تزوج من فاطمة ابنة عبدالملك، وعند تولي سليمان بن عبدالملك الخلافة الأموية (96 -99 ه / 715 -717 م) لمدة لم تتجاوز الثلاث سنوات وأثناء مرضه استشار الفقيه رجاء بن حيوة كما سبق الذكر في أمر تولية عمر بن عبدالعزيز فوافقه الأمر.

كان سليمان متردداً وخشي عدم تنفيذ بني أمية لوصيته عند اختياره عمر، وفكّر طويلاً ثم اهتدى إلى تولية شخص منهم بعد عمر، فجعل بعده يزيد بن عبدالملك، ولما استقر على هذا الرأي أشار عليه رجاء بكتابة العهد وختمه وأخذ البيعة لمن فيه، فكتب العهد (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبدالعزيز، إني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبدالملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم)وختمه ابن أبي نعيم صاحب الختم، ثم طواه سليمان، ودعا بأهل بيته من الامراء وأهل البيعة، فطلب منهم أن يبايعوا لمن في العهد المطوي المختوم، فبايعوا. (القلقشندي، 1915: 257)

قام عمر بعد توليه الخلافة وخطب في الناس قائلاً: (أني لست بخيركم، ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً، ... أوصيكم بتقوى الله ... وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ...وإني والله لا أعطي أحداً باطلا، ولا أمنع أحداً حقا ... أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم). (ابن سعد، 1322: 243 / الزبيدي، 107)

وعن الوليد بن مسلم أنه بلغهم أن رجلاً كان بخرسان قال: أتاني آتٍ في المنام فقال: إذا قام أشَجُّ بني أمية فانطلق فبايعه فإنه إمام عدل، فجعلت أسأل كلما قام خليفة،

حتى قام عمر بن عبدالعزيز فأتاني ثلاث مرّاتٍ في المنام فارتحلت إليه فبايعته. (السيوطي، 1997: 279)

وعن حبيب بن هند الأسلمي قال: قال لي سعيد ابن المسيب: إنما الخلفاء ثلاثة أبوبكر، وعمر، وعمر بن عبدالعزيز، قال: قلت له: أبوبكر وعمر عرفناهما، فمن عمر؟ قال إن عشت أدركته، وإن مت كان بعدك، ومات المسيب قبل خلافة عمر بن عبدالعزيز. (السيوطي، 1997: 279)

وقال مالك بن دينار: الناسُ يقولون: مالك زاهد، وإنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز الذي أتته الدنيا فتركها. (السيوطي، 1997: 279)

وقال عطاء بن أبي رباح: حدثتني فاطمة امرأة عمر أنها دخلت عليه وهو في مُصَلاّه تسيل دموعه على لحيته، فقالت يا أمير المؤمنين ألشيٌ حدث، قال: يا فاطمة إني تقلدتُ من أمر أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد؛ فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجة، فبكيت. (السيوطي، 1997: 279)

كان ذلك بداية فترة جديدة، ذات تجربة متميزة في تاريخ الدولة الأموية، ابتغت إحداث تبديل جدري يشمل المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نادت بها المبادئ الأولى للإسلام، والتي بشّر بها النبي صلى الله عليه وسلم وسعى في تطبيقها هو وأصحابه الخلفاء رضوان الله عليهم من بعده. ومن المؤسف أن هذه التجربة جاءت لفترة قصيرة من تاريخ الدولة الأموية وأعادت الإسلام إلى سيرته الأولى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانتهت بنهاية خلافة عمر بن عبدالعزيز التي لم تعمر كما ذُكِر سلفاً أكثر من الثلاثة أعوام، بل تجاوز المعقول فأوغلت في الانحراف والاستهتار، الذي ساق نحو النهاية بسرعة كبيرة. (زكار، 1982: 20)

ـ شخصية عمر وميزاته:

لم يكن وصول عمر للخلافة، لنسبه وأصله، إنما أيضاً بفضل شخصيته المميزة وسلوكه الإسلامي الرفيع، رغم أن والده عبدالعزيز بن مروان كان عامل مصر أثناء خلافة أخيه، أما أمه فكانت كما تم التعريف بها في سابق الصفحات هي أم عاصم

بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ولاشك بأن عمر بن عبدالعزيز قد تأثر أثناء نشأته إلى حدٍ كبير بتلك الأصول في حياته الدينية والسياسية والاجتماعية، وفي سلوكه عموماً. (خالد، 1974: 181)

كان عمر برغم هذا كله في صغره متأثراً بجاهه وطيب أرومته، حتى أخذ عنه البعض أنه بالغ في صباه بتنعمه واختياله في ممشاه، ومرد ذلك زهو الشباب واعتزازهم بأنفسهم، حتى إذا تقدمت به السن وأثقلت كاهله أعباء الإمارة والخلافة زهد في الدنيا وزينتها ومباهجها. (السيوطي، 1982، 274-275) رغم أنها غير معيبة لكن هناك دائماً من يحاول البحث على بعض المثالب وإن لم توجد، إن هذا التنعم لم يله هذا الشاب المترف عن التمسك بثوابت دينه وما يتطلبهُ ذلك من الوفاء بالعهد والميثاق، فعندما أراد الخليفة الوليد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع ابنه، وأطاعه كثير من الأشراف رغبة أو رهبة، لكن عمر أبى أن يخلع رجلاً له في عنقه بيعة، وكاد يفقد حياته جراء هذا الموقف من الخليفة الوليد. (حسن، 2001: 266) ثم دارت الأيام دورتها، وآلت الخلافة إلى سليمان بن عبدالملك، فلم ينس ذلك الموقف من عمر الذي كاد أن يضحي بحياته في سبيل الوفاء بعهده، وكانت المكافئة ولاية العهد وقد تحقق ذلك. (حسن، 2001: 266)

وللباحث في حياة عمر قبل أن يمارس مسئولية الخلافة تستوقفه النزعة الإنسانية التي كانت تغلب على تصرفاته وإيمانه القوي بالمبادئ الإسلامية، وهي صفات لازمته طيلة فترة شبابه، إلى جانب ذلك كان يمتلك الجرأة والشجاعة الكافيتين للجهر بما يعتقد مهما اشتدت المواقف وصعُبت الظروف.(محمصاني، 1984: 567)

على أن أهم الصفات التي تميز بها عمر بن عبدالعزيز هي: الزهد، والخشية من الله وتقواه، وتفاهة الدنيا بزخارفها وزينتها، وبذلك استحق أن يطلق عليه لقب خامس الخلفاء الراشدين، قال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة، أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم. (عبدالواحد، 1966: 35)

وأخرج أيضاً عن أبي هشام أن رجلاً جاء إلى عمر بن عبدالعزيز، فقال: رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في النوم، وأبوبكر عن يمينه، وعمر عن شماله، فإذا رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس، فقال لك: يا عمر إذا علمت فاعمل بعمل

هذين، لأبي بكر وعمر، فاستحلف له عمر بالله لرأيت هذا، فحلف له، فبكى عمر. (السيوطي، 1997: 275)

وعن فرات بن السائب أنه قال: قال عمر بن عبدالعزيز لامرأته فاطمة بنت عبدالملك - وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثلهُ -: اختاري إما أن تَرُدِّي حُليْك إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكرهُ أن أكون أنا وأنتِ وهو في بيت واحد، قالت: لا بل أختارك عليه وعلى أضعافه، فأمر به فحُمِل حتى وُضِعَ في بيت مال المسلمين، فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة: إن شئت رددته إليك، قالت: لا والله، لا أطيب به نفساً في حياته وأرجعُ فيه بعد موته. (السيوطي، 1997: 277)

سياسة عمر في الخلافة:

وإلحاقاً لما سبق، فإن عمر بن عبد العزيز بن عبد الملك من البيت الأموي الحاكم أنذاك، وهو ابن بنت الخليفة عمر بن الخطاب، فلا غرو أن يحاول الاقتداء بجده فكان رجلاً ورعاً تمسك بالدين وحفظ العهود والمواثيق، وكان الفرق شاسعاً بين عمر بن عبدالعزيز وغيره من الخلفاء الأمويين، وقد أعد المسلمون خلافته نمطاً مشابهاً لخلافة جده عمر بن الخطاب، سار في خلافته بموجب كتاب الله وسنّة نبيه وسياسة الخلفاء الراشدين من قبله. (ابن سعد، 1322: 292) كما اتخذ من المبادئ الإسلامية وسيلة لاسترضاء الأحزاب المعارضة للدولة الأموية من جهة ولنشر العدل من جهة أخرى وكان يهدف من كل ذلك إلى إرساء دعائم الدولة الإسلامية على قاعدة ثابتة صلبة.

من المعلوم والدولة الإسلامية تدخل مع عمر بن عبد العزيز في عصر رائع من عصور الإسلام ، عصر تتجلى فيه مظاهر العدل والحكمة والتقوى والفهم وحسن السياسة ، وتلك الصفات نادراً أن تتجلى في عصر آخر، فكانت سيرة عمر بن عبدالعزيز في خلافته قد ترافقت مع نجاح أعماله ، والمعارضة قد هدأ ريحها ، وسارت أمور الدولة على ما يرام من الاستقرار رغم أن تنظيماته وإصلاحاته تكاد تكون قلباً للدولة الأموية من أساسها ،وربما ينتج عن تلك الإصلاحات (التغييرات) تململ أو تشويش من ذوي النفوذ السابق الذين فقدوا عديد المزايا والحقوق المكتسبة وتقاليد الحكم ، لكن كل ذلك لم يحدث مع عمر وكان عصراً هادئا وساكناً وخالٍ من أي معارضة. (العش، 1998: 259)

وأول ما قام به في ذلك هو استمالة الفقهاء والمحدثين (رجال الدين) بعد إن كان هناك عدم وفاق وتنافر شديد بينهم وبين بني أمية، وأخذ بيدهم يستفتيهم ويستشيرهم في الأمور الدينية، ومن ضمن ما قام به كذلك إبعاد الشعراء والمغنين والقيان عن بلاط الخلافة الأموي مما زاد من رضى الفقهاء والاتقياء. (الزبيدي، 108) وعند دراسة سيرة عمر، نجده يحكم حكماً سهلاً ميسرا، فنتعجب من ذلك، ولا نفهم إلاّ بجهد الحكمة التي تمكن في تلك السهولة، والحق أن عمر استطاع أن يحقق إنجازاته بقوة شخصيته وإيمانه وعزيمته وحسن سياسته وعدله، وبتجربته للحكم عندما كان والياً ،وتشبعه بالدين الإسلامي وقيمه النبيلة، ولو قارنّا بين عمر بن عبدالعزيز وعبدالملك بن مروان، فقد ذُكِر أن عبدالملك كان طموحاً غاية الطموح ، وأنه كان يريد أن يتفوق كل التفوق أينما كان، وعمر بن عبدالعزيز يشابهه في هذا ، فهو طموح يحب التفوق لكن على وجه أخر، يُذكر عن عبدالملك ، أنه لمّا بلغه خبر انتقال الخلافة إليه، ودّع المصحف الذي كان بين يديه لينطلق إلى الحكم، أمّا عمر فهو حين أتته الخلافة، ازداد ديناً وتقى. (أبوالفداء، 1985: 39) وقد بلغت منه التقوى ما لم يُظْنُ فيه قبل الخلافة، وكانت سيرته في الخلافة قد مثلت الطهر وحسن الخلق ورعاية الأمانة وحفظ مقدّرات الدولة الإسلامية، وقد دمج العلم والسياسة ووجّه كل ذلك توجيهاً بالتقوى لا بالاستبداد، كما فعل عبدالملك بن مروان، إن الاصلاح الذي قام به عمر شمل كل النواحي في الدولة الأموية، وكأنه كان يُعد لذلك منذ طفولته، وكانت سياسته قبل الخلافة معارضة لسياسة الحجّاج بن يوسف الثقفي، وأخيراً تبلورت أفكاره ووضحت الخطة التي يجب أن يقوم بتطبيقها. (أبوالفداء، 1985: 40) عرف عمر بن عبدالعزيز أن أول أسباب نجاح خطته في التغيير هي البداية بنفسه أولاً ليوضح للرعية جديته في ذلك.

الإصلاحات:

منذ تولي معاوية بن أبي سفيان مقاليد الخلافة الإسلامية، جدّد في نظم الحكم والإدارة، فعلى الرغم من إبقائه على النظام الإداري القديم وعلى النظام النقدي المتبع في عصر الخلافة الراشدة، فإنه أول من اصطنع الموالي والنصارى في المناصب، فكان كاتبه سرجون الرومي، وعلى حرسه رجل من الموالي أبو المخارق مالك، وطبيبه ابن أثال نصرانياً، (سالم، 1971: 617) واستمر الخلفاء الأمويين على نفس السياسة تقريباً إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز، فكانت له تنظيماته الإدارية والمالية.

فبدأ بأولئك الشرطة الذين يحيطون بالخليفة، وتنفق عليهم الأموال، وأنه لا حاجة له بهم، فسرح منهم من أحب التسريح، واستبقى للدفاع عن ثغور الإسلام من أحب البقاء، بل رأى أنه يجب أن يكون مثلاً لغيره في رده الأموال التي منحه إياها الخلفاء السابقون من بيت مال المسلمين، فكان من أول أعماله أنه ردّ إلى بيت مال المسلمين ما أخذه واضطرت زوجته وهي كما أسلفنا القول بنت عبدالملك بن مروان، أن ترد حُليها التي أهداها إياها والدها. (العش، 1998: 259)

ومن زهده وخوفه من الله، أن قال يونس بن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبدالعزيز وإن حُجْزَةَ إزاره لغائبة في عُكَنه (تعبيراً عن البدانة)، ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمَسَّها لفعلت. (السيوطي، 1997: 279) وكان سعيداً بأن ابنه عبدالملك، وبأن أولاده الآخرين قد فهموا غايته، فاستبقوا إلى ما استبقى إليه، فقد قال له ابنه عبدالملك حين عزم أن يعيد بعد أيام إلى بيت المال ما منحه منه، وهل تضمن أن تعيش أياماً أخرى؟ فأعاد الأموال من ساعته وفرح بابنه. وبهذا المثال الجلي من الخليفة اضطرت الحاشية واصحاب المصالح إلى أن يسكتوا على ما يفعله الخليفة بهم، بعد أن بدأ بأولاده وبنفسه. (ضناوي، 1966: 34)

قال عمرو بن مهاجر أن عمر لما استخلف قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أيها الناس لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ألا وإني لست بفارِضٍ ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخيرٍ من أحدكم، ولكني أثْقَلُكُمْ حملاً، وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (السيوطي، 1997: 276). كما بعث ابن مسلم الباهلي على اقليم السند، وأوصاه بالرفق بأهل السند وتشجيعهم على الدخول في الإسلام، فأقبل في ولايته عدد كبير على اعتناق الإسلام وكان من بينهم جاي سنك بن داهر (ملك السند أنداك). (سالم، 1991: 632)

هذه بعض الأمثلة سقناها للتدليل على نزاهة الخليفة عمر بن عبد العزيز وخوفه من الله وحسن تدبير ومعاملة الرعية وكذلك زهده وتقشفه وعدله.

المبحث الثاني

إصلاحات عمر الإدارية

أدخل عمر بن عبد العزيز الكثير من الإصلاحات في خضم إعادة ترتيب الدولة الإسلامية بعد توليه خلافتها، ولكن هذه الإصلاحات كانت في الواقع في

مصلحة الإسلام أكثر من كونها في مصلحة بيت المال، وقد شعر بأن الخلافة ألقت على كاهله مسئولية ثقيلة، لذلك كان يخشى أن يقصّر في حد من حدود الله أو يحيد أحد عماله أو ممن يلي أمور المسلمين عن السنة التي سنها الرسول صلى الله عليه وسلم، أو عن كتاب الله عزّ وجل، (الهوني، 1976: 225) فقد سار عمر بن عبدالعزيز في إدارته للبلاد سياسة حازمة عادلة وسنرى ذلك في تعيين الولاة. (الزبيدي، 2002: 108)

أصرّ عمر على أن يختار ولاته في الأمصار الإسلامية من ذوي التقوى والصلاح القادرين على تطبيق وفرض سياسة العدل والنزاهة والصدق والمصداقية قولاً وعملا ، والسير بتلك الأمصار إلى الاستقرار والهدوء ، فكان يتحرى في اختيارهم ، بقصد السير على نهجه في السياسة والإدارة ، وإمعاناً في ذلك كان يدرب عماله على الإدارة الحسنة فيبعث إليهم من وقت لآخر بالكتب التي تحثهم على تقوى الله ، وأداء الأمانة ، واتباع أوامر الله، واجتناب نواهيه ، وأن يراعوا الله في معاملة الرعية ، وبعد أن أطمأن على ذلك ، أعطى عماله كامل الحرية بحيث لا يرجعون إليه إلاّ في الأمور المهمة أو إذا أشكل عليهم الأمر. (الهوني، 1976: 226)

قام عمر باستبدال عمّال بني أمية الذين كانوا يديرون الولايات الإسلامية منذ عهد سليمان بن عبدالملك ، وكانت ولاية إفريقية من أشد الولايات حاجة إلى عامل لين وسياسي يستقطبهم، خاصةً وأن عمال بني أمية أساءوا معاملة البربر، مما جعلهم في تذمر مستمر ضد حكم العرب ، لذلك تم اختيار إسماعيل بن عبيدالله بن أبي مهاجر لإفريقية ، وأرسل معه عشرة من الفقهاء نذكر منهم تسعة (لعدم العثور على اسم العاشر في المرجع) ليفقهوا الناس في أمور الدين ، وكانوا من أهل العلم والفقه ومنهم: 1- عبدالرحمن بن نافع 2- سعد بن مسعود التجيبي 3- موهب بن حي المعافري 4- حيّان بن ابي جبلة 5- إسماعيل بن عبيدالله الأعور 6- إسماعيل بن عبيد مولى الأنصار 7- طلق بن حابان 8- بكر بن سرارة الجدامي 9- عبدالرحمن الجعلي (الهوني، 1976: 229) .أما بالنسبة للعراق فقد تم عزل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وعين على البصرة عدي بن أرطأة الفزازي، وعين على الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن من بني عدي بن كعب ، وعين على المدينة أبوبكر محمد بن عمرو بن حزم، وعلى مكة عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد ابن أسيد .(الهوني، 1976: 231)

أما مصر فقد اختار لها عام 99ه / 717م رجلاً من أهلها، وهو معاوية بن عبدالرحمن ابن معاوية بن حديج، والذي كان مشهوداً له بالصلاح، أما عن خراسان وهي من المناطق مرتفعة الحساسية القبلية، فقد اختار لها الجرّاح بن عبدالله الحكمي، والأندلس فقد عُزِلَ عنها الحسن بن عبد الرحمن، وولى عمر بن عبدالعزيز عليها السمح بن مالك الخولاني، وقد كانت الأندلس تابعة لوالي إفريقية، وقد قام بعدة إصلاحات فيها (الهوني، 1976: 231)

ومن الإصلاحات التي أدخلها عمر بن عبد العزيز ، رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ،واعتبر الخراج حقاً عينياً ثابتاً على الأرض لا يتأثر بإسلام صاحبها، (العدوي، 1984-1985: 46) كما خفّف الضرائب على كافة المسلمين وبخاصة الموالي من الفرس ، وكان من نتائج هذه السياسة زيادة إقبال الناس على الدخول في الإسلام، وفي الجانب الآخر نقص إيراد بيت المال نقصاً ملموساً، ولتحاشي ذلك اشترط بعض الولاة الختان وحفظ شيء من القرآن أو فرض الجزية عمن أسلم، فأبي عمر أن يجيب الولاة إلى ما طلبوا، يدفعه إلى ذلك شدّة إيمانه وحرصه على ازدياد المقبلين على الدخول في الإسلام، ما يدل على ذلك جواب عمر على كتاب والي مصر الذي اشتكى فيه بأن الإصلاحات الأخيرة أضرت بالجزية واستأذنه على أن يفرض الجزية على من أسلم حديثاً، فكتب إليه عمر يوبخه حيث قال له:(فضع الجزية عمن أسلم، قبّح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه). (حسن، 2001: 267)

وباختيار عمال جدد وعزل عمّال بني أمية السابقين، أراد عمر أن يثبت للناس أن عهد العصبية والتعصب للقبيلة قد انتهى، ولم يعد صالح لمناصب الإدارة العليا في الدولة الإسلامية إلاّ ذوي الصلاح والعدل بعيداً عن النظرة القبلية أو القرابة أو العصبية الجاهلية المقيتة. كما كان عمر يتتبع عمّاله، ومدى رضى الناس عنهم وعن تصرفاتهم، كما كان لا يُعيد من تم عزله إلى الولاية مرة أخرى، وبالرغم من زهده وتقشفه، إلاّ أنه كان يوسّع على عُمّاله في النفقة، وصلت إلى أنه يعطي للعامل مائة دينا أو مائتي دينار، حتى يحفظهم من الطمع في أمال المسلمين أو أن تمتد أيديهم إلى بيت مال المسلمين، كما كان يفعل معظم ولاة بني أمية. (العش، 1998: 208) وكان يحث عماله على السير وفق سُنة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتركوا البدع، كما كان يحث الناس على عدم طاعة العامل الذي يحيد عن طريق الحق والكتاب والسُنة،

ورغم توجيهاته المباشرة لعماله إلاّ أنه كان يرقبهم مراقبة شديدة ويتتبع خطواتهم، وينشر حولهم العيون، وهم معرضون للوم والتوبيخ وحتى العزل. (العش، 1998: 209)

وقد امتاز عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز(99–101ه /717- 719 م) بحركة تحول إلى الإسلام واسعة النطاق: فقام بحركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة ، وقدّم للشعوب المفتوحة كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام، وصل إلى منحهم هبات من المال ،وقد قيل أنه أعطى في إحدى المناسبات قائداً نصرانياً (بطريقاً) ألف دينار ليألفه بها على الإسلام؛ كما أمر عمّال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام.(أرنولد، 1970: 182 / حسن، 2001: 168) وقيل إن الجرّاح بن عبدالله والي خراسان قد أدخل في الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص، بل قِيل أنه كتب إلى ملك الروم ليو الثالث (Leo iii) يدعوه إلى الإسلام . ومن ضمن إصلاحاته الإدارية، إلغاء القرار الذي صدر عام 81ه /700م وهو دفع ضريبة الرأس حتى بعد دخول الشخص في الإسلام. (الماوردي، 2002: 138)

ولما كان بعض الأحاديث قد حُرِفت لتلبية حاجة البدع والنزعات، فقد حرص عمر بن عبدالعزيز على الاهتمام بتدوين الأحاديث الصحاح، فأمر من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها، فكتبت في دفاتر وأرسلت نسخ منها إلى كافة أرجاء البلاد الإسلامية.(سالم، 1971، 693) ومن أشهر المحدّثين في العصر الأموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة (161ه / 777م) وله من الكتب الجامع الكبير، وأبو عبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن ابن المغيرة (ت159 ه / 775م) وله من الكتب كتاب السنن، وعبدالملك بن عبد العزيز بن جريج (ت150 ه / 767م)،وغيرهم كثر.(سالم، 1971: 693)

أتباعه مبدأ الشورى:

في هذا الجانب المهم في حكمه الدولة الإسلامية، قرّب إليه الفقهاء وكوّن منهم مجلساً استشارياً لمُدارسة أمور الدولة وأخذ رأيهم ولا يقطع أمر بدونهم، يراقبون المظالم ، ويكونون عوناً للحق والعدل، وذلك دليلاً على حرصه التام على العدل ومساواة الرعية وحباً لهؤلاء الفقهاء الذين كانوا أساتذة له لثقته بعلمهم ومعرفتهم وتقواهم ،وجعل موسم الحج من كل عام مؤتمراً عاماً يشارك فيه الجميع ،ويعرض فيه العمال والقضاة أعمالهم، ويسأل الناس عنهم وعن سياساتهم في

ولاياتهم، ومن تم يعزل من يستحق ذلك، كما سمح لمن لديه مظلمة بمقابلة الخليفة دون اذن، وبذلك أصبح تقييم الولاة ينطلق من الرعية، وإمعاناً في تطبيق هذه السياسة الحازمة، أمر الخليفة عمر بإعطاء مبلغاً مالياً لكل من يريد مقابلة الخليفة تراوح بين المائة والثلاثمائة دينار مصاريف السفر إلى دار الخلافة. (الهوني، 1976: 231)

النهي عن استعمال غير المسلمين في إدارات الدولة:

ومن الأمور المهمة التي حرص عليها عمر بن عبدالعزيز لتنظيم الإدارة في الخلافة الإسلامية، هي إبعاد العناصر غير الإسلامية في إدارة الدولة ودواوينها، لكي لا تخضع للتأثيرات الأجنبية، وكان يرى أنه قد جاز للمسلمين من قبل في زمن الفتح أن يستعينوا بهم في الإدارة لخبرتهم وعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير، فإنه لا يجوز لهم اليوم ذلك بعد أن اكتسب المسلمون خبرة في حكم الأمصار الإسلامية. (الهوني، 1976: 231)

ولذلك كتب إلى عماله بعزلهم، وأن يتم استبدالهم برجال مسلمين، كما منع اليهود والنصارى من الركوب على السروج والظهور بمظهر المسلمين، وكتب أيضاً بهذا الخصوص إلى جميع عمّاله في الأمصار الإسلامية ما فحواه أن الإسلام تشريف للمسلمين وعزّة لهم، وأن الذلة ضربت على من خالف الإسلام عقيدةً ومنهجاً، وأمر في هذا الكتاب أن لا يولوا أهل الذمة في أمور المسلمين، أو على خراجهم لأن ذلك يمنحهم بسط أيديهم وألسنتهم على رقاب المسلمين فيتطاولوا عليهم ويهينوا كرامتهم وعزّتهم. (ماجد، 1998: 130)

وقد بلغه ذات مرة أن أحد عماله اتخذ كاتباً له يدعى حسّان وهو غير مسلم، فكتب إليه مستنكراً، وأمره أن يعرض عليه الدخول في الإسلام وإن أبى عزله وكلّف سواه هذا المنصب، وعند قرأت كتاب الخليفة على حسّان أسلم وعلموه أركان الإسلام من طهارة وصلاة وزكاة وغيرها من الأركان وبقي في منصبه. (ماجد، 1998: 231)

كذلك نهج عمر بن عبدالعزيز سياسة اللين حتى مع المعارضين، ومنهم الخوارج فقد لاطفهم وانتهج معهم سياسة الحوار والاقناع بالحجة والبرهان، فبعث لأحد زعمائهم، وهو شوذب من بني يشكر، وكان أحد أقوى المناظرين ، فكتب إليه عمر كتاب يقول فيه: "فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا" ،(الهوني، 1976: 234) ومن بين إصلاحاته الإدارية أيضاً

تنظيم السجون فأعد لها ديواناً خاصاً للإشراف عليها ومتابعتها، وصنّف بين المساجين من مجرمين وسياسيين، ومنحهم كسوتين في الصيف والشتاء ، ومنح المسلمين منهم أداء فريضة العبادة، كما أبطل عادة متّبعة عند الأمويين قبله وهي إبعاد السياسيين إلى جزيرة دهلك بل ردّ من هنالك يزيد بن المهلب واعتبر تلك الجزيرة منفى للصوص والفساق ومن على شاكلتهم. (الهوني، 1976: 235)

وفي مجال القضاء، أعطى للقاضي مكانة مهمة في عهده (عمر بن عبد العزيز)، فكان القضاة أكثر استقلالية من العهود السابقة، وأعلى شأناً، وفي اختيار القاضي يقول عمر بن عبدالعزيز: " إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم ما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم عن الخصم، واقتداء الأئمة، ومشاورة أهل الرأي " (العدوي، 1984-1985: 21)، واختص القضاة في فصل الخصومات المدنية والأحوال الشخصية. ثم أضيف إلى اختصاصهم أمال المحجور عليهم والأوقاف. ومع ما للقضاة من جليل الشأن وعظيم المكانة فقد امتنع العديد من العلماء من تقلد القضاء عندما ندبوا له، وذلك لخوفهم من ضغط بعض ذوي السلطان عليهم، ومن المغريات التي تكتنف القاضي في المحيط الذي يعيش فيه. (العدوي، 1984-1985: 21-22) وتتضح كذلك أهمية منصب القاضي من رسالة بعث بها عمر إلى عتبة بن زرعة الطائي الذي كان يتولى الخراج في بلاد ما وراء النهر، إذ قال:" إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلاّ بها، فالولي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا". (زكار، 1982: 218)

المبحث الثالث

إصلاحات عمر المالية

أما عن الناحية المالية، فقد أقر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، العملات الفارسية والبيزنطية مع إضافة بعض النقوش العربية وما يقتضيه الإسلام، وفي العصر الأموي ضرب معاوية بن أبي سفيان بعد توليه الخلافة دنانير إسلامية عليها صورته متقلداً سيفه، وضرب عبدالله بن الزبير دراهم مدورة ونقش على الوجه (محمد رسول الله)، كما ضرب أخوه مصعب في العراق دراهم عام (70 ه / 689م) وكتب على الوجه (بركة الله) وعلى القفا أسم (الله). (الزبيدي، 2002: 185)

لكن لم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلاّ في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان وأمر بتعريب النقد عام (74 – 75 ه /693 – 694 م)،فضرب نقود إسلامية وكتب عليه (لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له) و (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وسورة الإخلاص (قل هو الله أحد الله الصمد) وعليها تاريخ الضرب (ضرب هذا الدينار سنة خمس وسبعين) وكان وزنه مثقال واحد، وفي نفس العام (75 ه / 694م) أمر عبدالملك عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بإنشاء دار لضرب وسك العملة وسميت (دار السكة) أو (دار اضرب)، كما فُرِضت عقوبات شديدة لمنع ضرب النقود خارج دار السكة ، وذلك منذ عهد عبدالملك ومن جاءوا بعده (الزبيدي، 2002: 185- 188)

ومن إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية، رفع الجزية عمن أسّلم من أهل الذمة ،كما قام بتخفيف الضرائب على المسلمين وبخاصة الموالي من الفرس، ولاشك بأن هذه السياسة قد زادت من وثيرة الداخلين في الإسلام، مع ملاحظة نقص إيراد بيت المال من الجزية، (حسن، 2001: 267) كما قام عمر بن عبدالعزيز برد المظالم من بني أمية وكان أول من ندب نفسه للنظر في المظالم من بني أمية على أهلها ،وقد شدّد عليهم وأغلظ ، والتي قد أثارت غضب المتنفذين من بني أمية (الماوردي، 2002: 78) وكانت قد أُخِذت من أهلها ظلماً ، شملت العقارات والضياع والأموال وردها إلى الخراج، ورغم ردة الفعل من قِبل الأمويين، لم يتن ذلك عمر عن تنفيذه وبكل حزم ،وكانوا قد أخبروه بأن سياسة رد المظالم قد أدت إلى إفلاس بيت المال أو بالأحرى نقص عائداته، وأن الأموال التي صُرِفت من قبْلِهِ، لا شأن له بها، لكنه رفض واعتبرها من صميم الأمانة المنوطة به. (حسن، 2001: 267)

ومن إصلاحاته كذلك الأعطيات خاصة من اموال الفيء، فلم يعارض عمر بن عبدالعزيز ما سارت عليه السلطة الأموية من صرف لتلك الأعطيات بمقادير غير ثابتة، بل وسع نطاق صرفها حتى شملت غير العرب من المسلمين، فجعلت لهم الأرزاق والأعطيات. (العش، 1998: 265) وكانت الأعطيات تمنح في عهد عمر بن الخطاب لعيل المقاتلة، وسار عثمان على نفس المنوال وجعلها تعطى لذرية الميت كموروث، لكن معاوية بن أبي سفيان ضيّق ذلك، ثم جاء عبدالملك بن مروان وأوقفها تماماً، أما عمر بن عبدالعزيز فأعادها بل قرّر زيادتها بمقدار عشرة دراهم للعرب والموالي على السواء. (سالم، 1998: 125)

كما كان عمر بن عبد العزيز يجري الأرزاق على الفقهاء الذين كانوا يعلِّمون الناس أمور دينهم ويحفظونهم القرآن الكريم، ومن ذلك مبعوثيه من الفقهاء مثل يزيد بن مالك، والحارث بن محمد إلى البادية لتعليم الناس السنة المحمدية، وأسدى لهما مبالغ مالية قبلها يزيد ولم يقبلها الحارث وقال: "ما كنت أخذ على علم علمته لله أجراً"، (ابن الأثير، 1966: 135) كما كان يعطي للعمال الأموال حتى تصل إلى ثلاثمائة دينار ليحفظهم من مد أيديهم للرشوة والمال الحرام (ابن الأثير، 1966، 135). فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك أن تكتب إليَّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم .(زكار، 1982: 218 / عمر، 2024) كما جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء ،ومنح الحرية للناس في التنقل من الريف إلى المدينة وكان ممنوع عليهم في عهد الحجّاج ومن سبقوه لكي يبقوا على دفع الخراج، ونظّم دفع الزكاة وخصص جزء منها للمؤلفة قلوبهم بقصد الترغيب في الإسلام ، كما جعل خُمسُ الغنائم لبيت مال المسلمين بدل منحها للخليفة، وقد أثمرت هذه السياسة عن إقبال أعداد كبيرة للدخول في الإسلام.(الزبيدي، 2002: 114)

في القضاء:

ظل القضاء في عهد بني أمية بسيطاً كما كان في عهد الخلفاء الراشدين ، وكان القاضي يعتمد على الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد، وانقسم القضاء إلى: قضاء شرعي وقضاء مدني، كما كان اختيار القضاة يتم من الخليفة والبعض من الولاة، وكان القاضي الشرعي يستمد أحكامه من الشريعة الإسلامية، أما القضايا التي لم يستطع حلّها فكان يفصل فيها قاضي المظالم، وقد أفرد له الأمويون ديواناً خاصاً، ويعتبر عمر بن عبدالعزيز أول خليفة أموي يندب نفسه في رد المظالم وفعلاً أفلح في ذلك، وراعى السنن العادلة وأعادها ،وشدّد عليهم حتى قيل له، إنا نخاف عليك من ردِّها العواقب، فقال كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته .(الماوردي، 2002، 78) وقيل أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل قدم من اليمن متظلماً فقال من البسيط :

تَدَعُونَ حَيْرانَ مَظْلُوماً بِبَابِكُمُ *** فَقَدْ أَتَاكَ بَعِيدُ الدَّارِ مَظْلُومُ

فقال ما ظلامتك؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي ، فقال يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه أصفي الوليد بن عبدالملك ضيعة فلان، فقال أخرجها من

الدفتر وليكتب برد ضيعته إليه ويطلق له ضعف نفقته.(الماوردي، 2002: 82) والضرب الثاني من الغصوب ما تغلب عليه ذوو الأيدي القوية وتصرفوا فيه تصرف الملاك بالقهر والغلبة ، ويتم رده بأحد أربعة أمور: إما باعتراف الغاصب وإقراره ، وإما بعلم والي المظالم فيجوز له ردِّه، وإما ببينة تشهد على الغاصب بغصبه ،وإما بتظاهر الأخبار الذي ينفي عنها التواطيء، وبذلك يكون حكم ولاة المظالم (الماوردي، 2002، 82)

وقد أبعد الولاة القساة عن استلام زمام البلاد لئلا يفسدوا في الأرض، فكتب إلى زرعة الكاوي وكان قد ولاّه خراج خرسان يقول: "إن للسلطان أركان لا يثبت إلاّ بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلي ولا أعظم عندي من ثغر خراسان، فاستوعب الخراج واحرزه

في غير ظلم، وكان يقصد من ذلك أن الدولة ترتكز على أربعة ركائز رئيسية تقود دفتها في الحكم والقضاء والمال، وهي، الخليفة والوالي والقاضي وصاحب بيت المال، لكن كان اهتمامه بالقضاء أكثرهم، فقد رأى في القاضي خمس مواصفات لابد من توفرها وهي: " أن يكون عالماً، مستشيراً لأهل العلم، بعيداً عن الطمع، منصفاً للخصم، محتملاً للأئمة ". وبهذه المواصفات أتصف قضائه بالتقوى والخوف من الله. (العش، 1998: 256)

وعن العدل في عهد عمر بن عبدالعزيز، يقول حسن القصاب:" رأيت الذئاب ترعى مع الغنم بالبادية في خلافة عمر ابن عبدالعزيز، فقلت: سبحان الله! ذئب في غنم لا يضرها؟

فقال الراعي: إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ".(السيوطي،1997: 278)

وقال موسى بن أعين: كنا نرعى الشاء بكرمان في خلافة عمر بن عبدالعزيز فكانت الشاة والذئب ترعى في مكان واحد، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب للشاة، فقلت: ما نرى الرجل الصالح إلاّ قد هلك، فحسبوه فوجدوه مات تلك الليلة. (السيوطي،1997: 279)

وفي العشور:

سار عمر بن عبد العزيز في مسألة العشور على نفس سيرة جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمر زريق بن حيّان الدمشقي في مصر أن يأخذ العشور من أهل الذين يديرون تجارتهم في مصر دينار على كل عشرين دينار، وجعل الحد الأدنى عشرة دنانير، على أن يثبت كل ذلك في سجلات رسمية.(سالم، 1998: 130) وجرت العادة أن تؤخذ جباية العشور على الثمار في فارس بالفضة الأمر الذي حمل الناس هناك إلى رفع شكوى لعمر بن عبدالعزيز ، فأمر عمر برد ما أُخِذ منهم وأمر أن يؤخذ منهم حسب ما يبيعون به، كما حرّم عشور الخمور وردّ ما أُخِذ سابقاً إليهم ،وكتب إلى عامله بالبصرة بأن الخمرة لا يشتريها ولا يبيعها ولا يأخذ عشرها مسلم ، كما كانت هناك هدايا تعطى للولاة في مناسبات أعياد الفرس، وأول من أخذها من الولاة الأمويين الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، علما بأن الخليفة عثمان بن عفان قد حاول منعها لكنه لم يتمكن من ذلك، وكان الولاة يجمعون تلك الضرائب إلى الخراج ،وقد أبطل عمر بن عبدالعزيز تلك الهدايا وغيرها من الضرائب المنافية للشرع،(ابن الأثير، 1966: 170) وعلى ضوء ذلك كتب إلى واليه بالكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن بإبطال أجور البيوت، ودراهم النكاح ، وجوائز الرسل ، وأرزاق العمال وغيرها ،ثم عمم ذلك الكتاب على جميع ولاته وعماله، وهنا يتم الرّد على من ظن من المؤرخين وخاصة المستشرقين منهم بأن إصلاحات عمر المالية قد أحدثت ضرراً كبيراً بأموال الدولة ، وأدت إلى نقص مصادر بيت المال منافية للحقيقة والواقع ،بل العكس تماماً، فقد كثرت الأموال واستغنى الناس بأرزاقهم وأعطياتهم وحقوقهم، ولم يبق من يمد يده طالباً المساعدة من الغير، وخير مثال ودليل على ذلك أنهم لم يجدوا فقراء لمنحهم الصدقات، مثل ما حدث مع يحي بن سعد مسئول صدقات إفريقية الذي بحث عن فقراء لإعطائهم حقهم من الزكاة فلم يعثر على أحد، (صالح، 1978: 30) فطلب منه الخليفة شراء عبيد بأموال الزكاة ويعتقهم، وكان الرجل يأتي بأموال كثيرة فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله.(صالح، 1978: 35) وهذا خير دليل على المشككين في تردي أوضاع بيت المال بعد إعفاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز للداخلين في الإسلام حديثاً من الجزية إلى جانب إعفاءات مالية أخري .

مثال أخر على كثرة المال العام في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، تمثل في كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن، أمره

فيه بإخراج أعطيات الناس، فرد عليه بأنه أخرجها لهم، وقد بقى في بيت المال، فطلب منه أن يؤدي دين من عليه دين، فرد عليه بأنه فعل، وبقى شيء من المال، فأمره أن يزوج الشباب، فرد عليه بأنه فعل، ولكن لايزال فضل من المال، فطلب منه أن يوسع على دافعي الجزية والخراج بأن يعطيهم قروضاً لأداء ما عليهم، معني ذلك أن العطاء كان يصل إلى جميع الناس، وأن الأموال قد كثرت حتى فاض بيت المال بالأموال.(ابن الأثير، 1966: 165)

وهكذا أغني عمر الناس، حتى أن زكاة الفطر وحدها أغنت فقراء المسلمين، وكانت إصلاحاته الإدارية والمالية قد أحدثت أثاراً إيجابية في الدولة الإسلامية بعمومها. (أمين، 35)

الخلاصة:

ويمكن تلخيص تلك الإصلاحات الإدارية والمالية في النقاط التالية:

1- أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد سار على سياسة جده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تجسيد العدل في الدولة الإسلامية.

2- أعاد اختيار الولاة من ذوي التقوى والصلاح والقادرين على فرض سياسة العدل والزهد.

3- عزله عمال بني أمية وهذا دليل أخر على جديته في التغيير ونزاهته.

4- نهى عن استعمال غير المسلمين في الأعمال الإدارية ودواوين الدولة، إبعاداً لها عن الفساد والتأثيرات الأجنبية.

5- اتباعه لسياسة اللين والملاطفة مع المعارضين بقصد كسبهم لصف الدولة الإسلامية.

6- منح استقلالية القضاء بحكم أنه أحد الأركان الأساسية في بناء الدولة.

7- رد المظالم والأرزاق لأصحابها والتي كانت قبل خلافته.

8- حافظ عمر بن عبدالعزيز على أموال بيت مال المسلمين، ولم يُصْرف إلاّ في الأوجه الصحيحة.

9- الاستفادة من هذه الورقة بأن الشرط الأساسي في بناء الدول هو الحاكم العادل الذي يخاف الله ويخشاه.

المصادر والمراجع:

أولاً : القرآن الكريم:

1- سورة الشعراء – الآية رقم 214.
2- سورة النحل – الآية رقم 90.

ثانياً: المصادر والمراجع:

3- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، تاريخ الخلفاء، دار الجيل –بيروت – لبنان، ط3 / 1997م.
4- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج3، المطبعة الأميرية – القاهرة /1915م.
5- أبو الفداء، إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية ج5، دار الفكر – بيروت / 1985م.
6- الماوردي، أبو الحسن علي، الأحكام السلطانية، دار الفكر للطباعة والنشر والإعلان، بيروت – لبنان / 2002م.
7- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط5 /1966م.
8- ابن سعد، الطبقات الكبرى ج5، طبعة ليدن / 1322ه -1904م.
9- أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، تر – حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة / 1970م.
10-حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) ج1، دار الجيل، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط15 / 2001م.
11-الهلاوي، محمد عبدالعزيز، ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مكتبة ابن سينا – القاهرة، ط1 /2014.
12- الزبيدي، محمد حسين وآخر، الدولة الأموية، الجامعة المفتوحة – طرابلس، ط1 / 2002م.
13 – عبدالواحد، مصطفى، السيرة النبوية ج3، دار الفكر – القاهرة / 1966م.
14 – محمد، عبدالستار جاسم، الحياة التعبدية للرسول وخلفائه الراشدين ج1 –ج2، دار ابن كثير – دمشق –بيروت، ط2 / 2012م.
15 – زكار، سهيل، تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر، ط4 /1982م.

16 – خالد، محمد، خلفاء الرسول، دار الكتاب، بيروت – لبنان، ط2 /1974م.

17 – محمصاني، صبحي، تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط1 /1984م.

18 – العش، يوسف، الدولة الأموية، دار الفكر – دمشق، ط5 / 1998م.

19 – ضناوي، محمد علي الحكم والاقتصاد والقضاء، دار الفكر – بيروت، ط1 /1966م.

20 – الهوني، فرج محمد، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية، الشركة العامة للدعاية والنشر والإعلان – طرابلس –ليبيا، ط1 /1874م.

21 – سالم، السيد عبدالعزيز، تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت /1971م.

22 – العدوي، إبراهيم أحمد وآخرون، الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، طبعة خاصة – أمانة التعليم – الجماهيرية / 84- 1985م.

23 – ماجد، عبدالمنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط8 /1998م.

24 – سالم، السيد عبدالعزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة – بيروت، ط1 /1998م.